بسم الله الرحمن الرحيم

شرح حديث عمران بن حصين المرفوع :
« كان الله ولم يكن شيء قبله » (١)

الحمد لله نستعينه ونستغفره . ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومَن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أنَّ لا إلٰهَ إلَّا الله وحده لا شريك له . ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً .

فصل
فى خلق الله هذا العالَم .. وأول شئ خلقه وكتابته المقادير

فى صحيح البخارى وغيره من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال : « يا بنى تميم ، اقبلوا البُشرَى » قالوا : قد بشَّرتنا فأعطنا ، فأقبل على أهل اليمن فقال : « يأهل اليمن ، اقبلوا البُشرَى إذ لم يقبلها بنو تميم » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : « كان الله ولم يكن شئ قبله » - وفى لفظ : « معه » ، وفى لفظ : « غيره » - « وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموٰات والأرض » - وفى لفظ : « ثم خلق السموٰات والأرض » . ثم جاءنى رجل فقال : أدرِك ناقتك ، فذهبتُ فإذا السراب ينقطع دونها ، فوالله لوددتُ أنى تركتها ولم أقم .

قوله : « كتب فى الذكر » يعنى اللَّوح المحفوظ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ (٢) - أى من بعد اللَّوح المحفوظ ، يسمى ما يكتب

(١) منقولة من الجزء الحادى والثلاثين من كتاب « الكواكب الدرارى » الموجود بالمكتبة الظاهرية بدمشق المحروسة .
(٢) الأنبياء : ١٠٥

فى الذكر ذكراً كما يسمى ما يكتب فيه كتاباً كقوله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (١) .

والناس فى هذا الحديث على قولين : منهم مَن قال : إنَّ مقصود الحديث إخباره بأنَّ اللّه كان موجوداً وحده ، ثم إنه ابتدأ إحداث جميع الحوادث ، وإخباره بأنَّ الحوادث لها ابتداء بجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم ، وأنَّ جنس الزمان حادث لا فى زمان ، وجنس الحركات والمتحركات حادث ، وأنَّ اللّه صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتدأ الفعل ولا كان الفعل ممكناً .

ثم هؤلاء على قولين : منهم مَن يقول : وكذلك صار متكلماً بعد أن لم يكن يتكلم بشىء ، بل ولا كان الكلام ممكناً له . ومنهم مَن يقول : الكلام يوصف به بأنه يقدر عليه ، لا أنه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، بل هو أمر لازم لذاته بدون قُدرته ومشيئته . ثم هؤلاء منهم مَن يقول : هو المعنى دون اللفظ المقروء عبَّر عنه بكل من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . ومنهم مَن يقول : بل هو حروف وأصوات لازمة لذاته لم تزل ولا تزال ، وكل ألفاظ الكتب التى أنزلها وغير ذلك .

والقول الثانى فى معنى الحديث : أنه ليس مراد الرسول هذا ، بل إنَّ الحديث يناقض هذا ، ولكن مراده إخباره عن خلق هذا العالَم المشهود الذى خلقه اللّه فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، كما أخبر القرآن العظيم بذلك فى غير موضع ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٢) ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عبد اللّه بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : « قَدَّرَ اللّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » فأخبر ﷺ أنَّ تقدير خلق هذا العالَم

---

(١) الواقعة : ٧٧ - ٧٨ (٢) هود : ٧

المخلوق فى ستة أيام وكان حينئذ عرشه على الماء ، كما أخبر بذلك القرآن والحديث المتقدم الذى رواه البخارى فى صحيحه عن عمران رضى الله عنه . ومن هذا الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وغيرهما عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة » فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض ، وهو أول ما خلق من هذا العالَم ، وخلقه بعد العرش كما دلّت عليه النصوص ، وهو قول جمهور السَلَف ، كما قد ذكرت أقوال السَلَف فى غير هذا الموضع . والمقصود هنا بيان ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسُنّة .

• معنى الحديث : بيان بدء خلق هذا العالَم المشاهَد لا الخلق مطلقاً :

والدليل على هذا القول الثانى وجوه :

أحدها : أنّ قول أهل اليمن : « جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر » إما أن يكون الأمر المشار إليه هذا العالَم أو جنس المخلوقات ، فإن كان المراد هو الأول كان النبى ﷺ قد أجابهم لأنه أخبرهم عن أول خلق هذا العالَم ، وإن كان المراد الثانى ، لم يكن قد أجابهم لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقاً بل قال : « كان الله ولا شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذِكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » فلم يذكر إلا خلق السموات والأرض ، لم يذكر خلق العرش ، مع أنّ العرش مخلوق أيضاً ، فإنه يقول : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ (١) وهو خالق كل شىء : العرش وغيره ، ورب كل شىء : العرش وغيره . وفى

---

(١) التوبة : ١٢٩

حديث أبى رزين قد أخبر النبى ﷺ بخلق العرش . وأما فى حديث عمران فلم يُخبر بخلقه ، بل أخبر بخلق السموات والأرض ، فعُلِمَ أنه أخبر بأول خلق هذا العالَم لا بأول الخلق مطلقاً .

وإذا كان إنما أجابهم بهذا عُلِمَ أنهم إنما سألوه عن هذا لم يسألوه عن أول الخلق مطلقاً ، فإنه لا يجوز أن يكون أجابهم عما لم يسألوه عنه ولم يجبهم عما سألوه عنه ، بل هو ﷺ منزّه عن ذلك ، مع أنّ لفظه إنما يدل على هذا لا يدل على ذكره أول الخلق ، وإخباره بخلق السموات والأرض بعد أن كان عرشه على الماء يقصد به الإخبار عن ترتيب بعض المخلوقات على بعض ، فإنهم لم يسألوه عن مجرد الترتيب ، وإنما سألوه عن أول هذا الأمر ، فعُلِمَ أنهم سألوه عن مبدأ خلق هذا العالَم فأخبرهم بذلك كما نطق فى أولها : فى أول الأمر خلق اللّه السموٰات والأرض . وبعضهم يشرحها : فى البدء - أو فى الابتداء - خلق اللّه السموٰات والأرض .

والمقصود : أنّ فيها الإخبار بابتداء خلق السموات والأرض ، وأنه كان الماء غامراً للأرض ، وكانت الريح تهب على الماء ، فأخبر أنه حينئذ كان هذا ماءً وهواءً وتراباً ، وأخبر فى القرآن العظيم أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، وفى الآية الاخرى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) وقد جاءت الآثار عن السَلَف بأنّ السماء خُلِقَت من بخار الماء وهو الدخان .

والمقصود هنا : أنّ النبى ﷺ أجابهم عما سألوه عنه ولم يذكر إلا ابتداء خلق السموات والأرض ، فدل على أنّ قولهم : « جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر » كان مرادهم خلق هذا العالَم . واللّه أعلم .

---

(١) فصلت : ١١

• المراد بالأمر متعلقه وهو العالم المأمور لا كلمة التكوين « كن » :

الوجه الثانى : أنَّ قولهم : « هذا الأمر » إشارة إلى حاضر موجود ، والأمر يُراد به المصدر ويُراد به المفعول به وهو المأمور الذى كوَّنه الله بأمره ، وهذا مرادهم فإنَّ الذى هو قوله [1] ليس مشهوداً مشاراً إليه بل المشهود المشار إليه هذا المأمور به قال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [3] ، ونظائره متعددة . ولو سألوه عن أول الخلق مطلقاً لم يشيروا إليه بـ « هذا » فإنَّ ذاك لم يشهدوه فلا يشيرون إليه بـ « هذا » ، بل لم يعلموه أيضاً فإنَّ ذاك لا يُعلم إلا بخبر الأنبياء ، والرسول ﷺ لم يخبرهم بذلك ، ولو كان قد أخبرهم به لما سألوه عنه ، فعُلِمَ أنَّ سؤالهم كان عن أول هذا العالم المشهود .

الوجه الثالث : أنه قال : « كان الله ولم يكن شىء قبله » - وقد رُوِىَ : « معه » ، ورُوِىَ : « غيره » - والألفاظ الثلاثة فى البخارى ، والمجلس كان واحداً ، وسؤالهم وجوابه كان فى ذلك المجلس ، وعمران الذى روى الحديث لم يقم منه حين انقضى المجلس ، بل قام لما أُخبر بذهاب راحلته قبل فراغ المجلس ، وهو المُخبِر بلفظ الرسول فدل على أنه إنما قال أحد الألفاظ ، والآخران رُوِيا بالمعنى . وحينئذ فالذى ثبت عنه لفظ « القبل » فإنه قد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : « أنتَ الأول فليس قبلك شىء ، وأنتَ الآخر فليس بعدك شئ ، وأنتَ الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنتَ الباطن فليس دونك شىء » وهذا موافق ومُفَسِّر لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ [4] .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صوابه : فإنَّ الأمر الذى هو قوله للشئ « كن » فيكون .

(٢) الأحزاب : ٣٨ (٣) النحل : ١ (٤) الحديد : ٣

● الرواية الصحيحة : « ولم يكن شئ قبله » ومعناها :

وإذا ثبت فى هذا الحديث لفظ « القبل » فقد ثبت أنَّ الرسول ﷺ قاله واللَّفظان الآخران لم يثبت (١) واحد منهما أبداً ، وكان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل : « كان اللّه ولا شىء قبله » مثل الحميدى والبغوى وابن الأثير وغيرهم . وإذا كان إنما قال : « كان اللّه ولم يكن شىء قبله » لم يكن فى هذا اللّفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق .

الوجه الرابع : أنه قال فيه : « كان اللّه ولم يكن شىء قبله ، أو معه ، أو غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء » فأخبر عن هذه الثلاثة بلفظ الواو ، لم يذكر فى شىء منها « ثم » ، وإنما جاء « ثم » فى قوله : « خلق السموات والأرض » وبعض الرواة ذكر فيه خلق السموات والأرض بـ « ثم » وبعضهم ذكرها بالواو . فأما الجمل الثلاث المتقدمة فالرواة متفقون على انه ذكرها بلفظ الواو ، ومعلوم أنَّ لفظ الواو لا يفيد الترتيب على الصحيح الذى عليه الجمهور ، فلا يفيد الإخبار بتقديم بعض ذلك على بعض ، وإن قُدِّرَ أنَّ الترتيب مقصود ، إما من ترتيب الذِكر لكونه قَدَّم بعض ذلك على بعض ، وإما من الواو (٢) عند مَن يقول به ، فإنما فيه تقديم كونه على العرش على الماء ، وتقديم كون العرش على الماء على كتابته فى الذِكر كل شىء ، وتقديم كتابته فى الذِكر كل شىء على تقديم خلق السمٰوات والأرض ، وليس فى هذا ذكر أول المخلوقات مطلقاً ، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش والماء وإن كان ذلك مخلوقاً كما أخبر به فى مواضع أُخر ، لكن فى جواب أهل اليمن إنما كان مقصود إخباره إياهم عن بدء خلق السمٰوات والأرض وما بينهما وهى المخلوقات التى خُلِقَتْ فى ستة أيام لا بابتداء ما خلقه اللّه قبل ذلك .

---

(١) لعل أصله : « لا يثبت » لتأكيده بكلمة « أبداً » التى بمعنى المستقبل .

(٢) لعل أصله : من جعل الواو لترتيب ... إلخ .

● خلق السموات والأرض بعد خلق العرش وكونه على الماء :

الوجه الخامس : أنه ذكر تلك الأشياء بما يدل على كونها ووجودها ، ولم يتعرض لابتداء خلقها ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها ، وسواء أكان قوله : « وخلق السموات والأرض » أو « ثم خلق السموات والأرض » فعلى التقديرين أخبر بخلق ذلك ، وكل مخلوق محدَث كائن بعد أن لم يكن ، وإن كان قد خُلِقَ من مادة ، كما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال : « خلق الله الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم » فإن كان لفظ الرسول ﷺ : « ثم خلق » فقد دل على أنَّ خلق السموات والأرض بعد ما تقدم ذكره من كون عرشه على الماء ومن كتابته فى الذكر ، وهذا اللفظ أولى بلفظ رسول الله ﷺ لما فيه من تمام البيان وحصول المقصود بلفظة الترتيب ، وإن كان لفظه « الواو » فقد دل سياق الكلام على أنَّ مقصوده أنه خلق السموات والأرض بعد ذلك ، وكما دل على ذلك سائر النصوص ، فإنه قد عُلِمَ أنه لم يكن مقصوده الإخبار بخلق العرش ولا الماء فضلاً عن أن يقصد أنَّ خلق ذلك كان مقارناً لخلق السموات والأرض ، وإذا لم يكن فى اللفظ ما يدل على خلق ذلك إلا مقارنة خلقه لخلق السموات والأرض وقد أخبر عن خلق السموات مع كون ذلك ، عُلِمَ أنَّ مقصوده أنه خلق السموات والأرض حين كان العرش على الماء كما أخبر بذلك فى القرآن ، وحينئذ يجب أن يكون العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض كما أخبر بذلك فى الحديث الصحيح حيث قال : « قَدَّرَ الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » فأخبر أنَّ هذا التقدير السابق لخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة حين كان عرشه على الماء .

● ما يصح من وجوه الحديث المحتملة وما لا يصح :

الوجه السادس : أنَّ النبى ﷺ إما أن يكون قد قال : « كان ولم يكن قبله شئ » ، وإما أن يكون قد قال : « ولا شىء معه » ، أو « غيره » . فإن كان إنما قال اللفظ الأول لم يكن فيه تعرض لوجوده تعالى قبل جميع

الحوادث ، وإن كان قد قال الثانى أو الثالث فقوله : « ولم يكن شئ معه وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر » إما أن يكون مراده : أنه حين كان لا شئ معه كان عرشه على الماء ، أو كان بعد ذلك كان عرشه على الماء ، فإن أراد الأول كان معناه : لم يكن معه شئ من هذا الأمر المسؤول عنه وهو هذا العالَم ، ويكون المراد : أنه كان اللّه قبل هذا العالَم المشهود وكان عرشه على الماء ، وأما القسم الثالث - وهو أن يكون المراد به : كان لا شئ معه وبعد ذلك كان عرشه على الماء وكتب فى الذكر ثم خلق السموات والأرض - فليس فى هذا إخبار بأول ما خلقه اللّه مطلقاً ، بل ولا فيه إخباره بخلق العرش والماء ، بل إنما فيه إخباره بخلق السموات والأرض ، ولا صرّح فيه بأن كون عرشه على الماء كان بعد ذلك ، بل ذكره بحرف الواو ، الواو للجمع المطلق والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ، وإذا كان لم يبيِّن الحديث أول المخلوقات ولا ذكر ما كان خلق العرش الذى أخبر أنه كان على الماء مقروناً بقوله : « كان اللّه ولا شئ معه » ، دل ذلك على أنّ النبى ﷺ لم يقصد الإخبار بوجود اللّه وحده قبل كل شئ وبابتداء المخلوقات بعد ذلك إذ لم يكن لفظه دالاً على ذلك ، وإنما قصد الإخبار بابتداء خلق السموات والأرض

الوجه السابع : أن يُقال : لا يجوز أن يُجزَم بالمعنى الذى أراده الرسول ﷺ إلا بدليل يدل على مراده ، فلو قُدِّرَ أنّ لفظه يحتمل هذا المعنى وهذا المعنى لم يجز الجزم بأحدهما إلا بدليل ، فيكون إذا كان الراجح هو أحدهما لمن جزم بأنّ الرسول ﷺ إن أراد ذلك المعنى الآخر فهو مخطىء [1] .

الوجه الثامن : أن يُقال : هذا المطلوب لو كان حقاً لكان أجَلُّ من أن يُحتَج عليه بلفظ محتمل فى خبر لم يروه إلا واحد ، ولكان ذِكر هذا فى القرآن والسُّنّة

---

(١) كذا فى الأصل وليحرَّر .

من أهم الأمور لحاجة الناس إلى معرفة ذلك لما رقع فيه من الاشتباه والنزاع واختلاف الناس ، فلما لم يكن فى السُّنَّة ما يدل على هذا المطلوب لم يجز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث بسياقه ، وإنما سمعوا أنَّ النبى ﷺ قال : « كان ولا شئ معه » فظنوه لفظاً ثابتاً مع مجرده عن سائر الكلام الصادر عن النبى ﷺ وظنوا معناه الإخبار بتقدمه تعالى على كل شئ ، وبنوا على هذين الظنين نسبة ذلك إلى النبى ﷺ ، وليس عندهم بواحدة من المقدمتين علم بل ولا ظن يستند إلى أمارة ، وهب أنهم لم يجزموا بأنَّ مراده المعنى الآخر فليس عندهم ما يوجب الجزم بهذا المعنى ، وجاء بينهم الشك وهم ينسبون إلى الرسول ما لا علم عندهم بأنه قاله . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وهذا كله لا يجوز .

الوجه العاشر : أنه قد زاد فيه بعض الناس : « وهو الآن على ما عليه كان » وهذه الزيادة إنما زادها بعض الناس من عنده ، وليست فى شىء من الروايات . ثم إنَّ منهم مَن يتأولها على أنه ليس معه الآن موجود ، بل وجوده عين وجود المخلوقات كما يقوله أهل وحدة الوجود الذين يقولون : « عين وجود الخالق هو عين وجود المخلوق » ، كما يقوله ابن عربى وابن سبعين والقونوى والتلمسانى وابن الفارض ونحوهم (٣) ، وهذا القول مما يُعلم بالاضطرار شرعاً وعقلاً أنه باطل .

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) الأعراف : ٣٣

(٣) ابن عربى : هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى (توفى عام ٦٣٨ هـ) ، وابن سبعين هو : أبو محمد عن الحق بن إبراهيم الإشبيلى (توفى عام ٦٦٨ هـ) ، والقونوى هو : محمد بن إسحاق (توفى عام ٦٧٣ هـ) ، والتلمسانى : هو عفيف الدين سليمان بن على (توفى عام ٦٩٠ هـ) ، وابن الفارض : هو عمر بن على (توفى عام ٦٣٢ هـ) .
ومن القائلين بالوحدة والاتحاد - عدا هؤلاء : الحلاج ، والشعوذى ، وابن أخلى ، وسهل التسترى ، وابن مطرف ، والصفار ، وابن اللباج ، وأبو الحسن ، وابن عياش المالقى ، وعبد الواحد بن المؤخر ، والأيكى العجمى ، وأبو يعقوب بن مبشر ، وانظر جـ ١ هامش ص ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، جـ ٤ هامش ص ٩ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣١ للتعريف بابن عربى وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى ، وابن الفارض ، والحلاج (البلتاجى) .

● قاعدة حدوث العالَم وسبق الحوادث بالعدم لا أصل لها من النقل :

الوجه الحادى عشر : أنَّ كثيراً من الناس يجعلون هذا عمدتهم من جهة السمع : أن الحوادث لها ابتداء ، وأن جنس الحوادث مسبوق بالعدم إذا [1] لم يجدوا فى الكتاب والسُنَّة ما ينطق به مع أنهم يحكون هذا عن المسلمين واليهود والنصارى ، كما يوجد مثل هذا فى كتب آكثر أهل الكلام المبتدَع فى الإسلام الذى ذمه السَلَف وخالفوا به الشرع والعقل . وبعضهم يحكيه إجماعاً للمسلمين ، وليس معهم بذلك نقل لا عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن الكتاب والسُنَّة ، فضلاً عن أن يكون هو قول جميع المسلمين .

● كثير من الناس يجهل الحق لأنه يكتفى بالمذاهب الخلافية عن قول الرسل :

وبعضهم يظن أنَّ مَن خالف ذلك فقد قال بقِدم العالَم ووافق الفلاسفة الدهرية ، لأنه نظر فى كثير من كتب الكلام فلم يجد فيها إلا قولين : قول الفلاسفة القائلين بقِدم العالَم إما صورته وإما مادته ، سواء قيل : هو موجود بنفسه أو معلول لغيره . وقول مَن رد على هؤلاء من أهل الكلام الجهمية والمعتزلة والكرامية [2] الذين يقولون : إنَّ الرب لم يزل لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بشىء ، ثم أحدث الكلام والفعل بلا سبب أصلاً .

وطائفة أخرى كالكلابية [3] ومَن وافقهم يقولون : بل الكلام قديم العين إما معنى واحد ، وإما أحرف وأصوات قديمة أزلية قديمة الأعيان ، ويقول هؤلاء : إنَّ الرب لم يزل لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بمشيئته وقُدرته ثم حدث ما يحدث

---

(١) لم يظهر لنا معنى هذا الظرف هنا .

(٢) الجهمية : أصحاب جهم بن صفوان ، والمعتزلة : أصحاب واصل بن عطاء ، والكرامية : أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام (البلتاجى) .

(٣) للتعريف بالكلابية انظر جـ ٣ هامش ص ٣٨ (البلتاجى) .

بقُدرته ومشيئته ، إما قائماً بذاته أو منفصلاً عنه عند مَن يُجَوِّز ذلك ، وإما منفصلاً عنه عند مَن لم يُجَوِّز قيام ذلك بذاته .

ومعلوم أنَّ هذا القول أشبه بما أخبرت به الرسل من أن اللّه خالق كل شيء ، وأنَّ اللّه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، فمَن ظن أنه ليس للناس إلا هذان القولان وكان مؤمناً بأنَّ الرسل لا يقولون إلا حقاً يظن أنَّ هذا قول الرسل ومَن اتبعهم . ثم إذا طولب بنقل هذا القول عن الرسل لم يمكنه ذلك ولم يمكن لأحد أن يأتى بآية ولا حديث يدل على ذلك ، لا نصاً ولا ظاهراً ، بل ولا يمكنه أن ينقل ذلك عن أحد من أصحاب النبى ﷺ والتابعين لهم بإحسان .

وقد جعلوا ذلك معنى حدوث العالَم الذى هو أول مسائل أصول الدين عندهم . فيبقى أصل الدين الذى هو دين الرسل عندهم ليس عندهم ما يعلمون به أنَّ الرسول قاله ولا فى العقل ما يدل عليه . بل العقل والسمع يدل على خلافه . ومَن كان أصل دينه الذى هو عنده دين اللّه ورسوله لا يعلم أنَّ الرسول جاء به كان من أضل الناس فى دينه .

الوجه الثانى عشر : أنهم لما اعتقدوا أنَّ هذا هو دين الإسلام أخذوا يحتجون عليه بالحجج العقلية المعروفة لهم ، وعمدتهم التى هى أعظم الحجج ، مبناها على امتناع حوادث لا أول لها ، وبها أثبتوا حدوث كل موصوف بصفة وسموا ذلك إثباتاً لحدوث الأجسام ، فلزمهم على ذلك نفى صفات الرب عَزَّ وجَلَّ ، وأنه ليس له علم ولا قُدرة ولا كلام يقوم به ، بل كلامه مخلوق منفصل عنه ، وكذلك رضاه وغضبه ، والتزموا على ذلك أنَّ اللّه لا يُرى فى الآخرة ، وأنه ليس فوق العرش ، إلى غير ذلك من اللوازم التى نفوا بها ما أثبته اللّه ورسوله ، وكان حقيقة قولهم تكذيباً لما جاء به الرسول ﷺ ، وتسلط أهل العقول على تلك الحجج التى لهم فبيَّنوا فسادها .

• تسلط الدهرية على جهلة المتكلمين النفاة :

وكان ذلك مما سلّط الدهرية القائلين بقِدم العالَم لما علموا حقيقة قولهم وأدلتهم ونسوا فساده . ثم لما ظنوا أنَّ هذا قول الرسول ﷺ واعتقدوا أنه باطل قالوا : إنَّ الرسول لم يُبَيِّن الحقائق سواء علمها أو لم يعلمها ، وإنما خاطب الجمهور بما يخيل لهم ما ينتفعون به . فصار أولئك المتكلمون النُفاة مخطئين فى السمعيات والعقليات ، وصار خطؤهم من أكبر أسباب تسلط الفلاسفة ، لما ظن أولئك الفلاسفة الدهرية أنه ليس فى هذا المطلوب إلا قولان : قول أُولئك المتكلمين وقولهم . وقد رأوا أنَّ قول أولئك باطل فجعلوا ذلك حُجَّة فى تصحيح قولهم ، مع أنه ليس للفلاسفة الدهرية على قولهم بقِدم الأفلاك حُجَّة عقلية أصلاً وكان من أعظم أسباب هذا أنهم لم يحققوا معرفة ما بَعَثَ اللّه به رسوله ﷺ .

الوجه الثالث عشر : أنَّ الغلط فى معنى هذا الحديث هو من عدم المعرفة بنصوص الكتاب والسُنَّة ، بل المعقول الصريح ، فإنه أوقع كثيراً من النُظَّار وأتباعهم فى الحيرة والضلال ، فإنهم لم يعرفوا إلا قولين : قول الدهرية القائلين بالقِدم . وقول الجهمية القائلين بأنه لم يزل مُعطلاً عن أن يفعل أو يتكلم بقُدرته ومشيئته ، ورأوا لوازم كل قول تقتضى فساده وتناقضه ، فبقوا حائرين مرتابين جاهلين ، وهذه حال مَن لا يُحصى منهم ، ومنهم مَن صرَّح بذلك عن نفسه كما صرَّح به الرازى وغيره .

ومن أعظم أسباب ذلك أنهم نظروا فى حقيقة قول الفلاسفة فوجدوا أنه لم يزل المفعول المعين مقارناً للفاعل أزلاً وأبداً ، وصريح العقل يقتضى بأنه لا بد أن يتقدم الفاعل على فعله ، وأنَّ تقدير مفعول الفاعل مع تقدير أنه لم يزل مقارناً له لم يتقدم الفاعل عليه بل هو معه أزلاً وأبداً أمر يناقض صريح العقل . وقد استقر فى الفِطَر أنَّ كون الشىء المفعول مخلوقاً يقتضى أنه كان بعد أن لم يكن .

ولهذا كان ما أخبر الله به فى كتابه من أنه خلق السموات والأرض بما يفهم [1] جميع الخلائق أنهما حدثتا بعد أن لم يكونا ، وأما تقدير كونهما لم يزالا معه مع كونهما مخلوقين له فهذا تنكره الفِطَر ، ولم يقله إلا شرذمة قليلة من الدهرية كابن سينا [2] وأمثاله .

• الرد على نظريات الفلاسفة فى الخلق وعِلّته :

وأما جمهور الفلاسفة الدهرية كأرسطو وأتباعه فلا يقولون إنَّ الأفلاك معلولة لعِلّة فاعلة كما يقوله هؤلاء ، بل قولهم وإن كان أشد فساداً من قول متأخريهم فلم يخالفوا صريح المعقول فى هذا المقام الذى خالفه هؤلاء . وإن كانوا خالفوه من جهات أخرى ونظروا فى حقيقة قول أهل الكلام الجهمية والقَدَرية ومَن اتبعهم فوجدوا أنَّ الفاعل صار فاعلاً بعد أن لم يكن فاعلاً من غير حدوث شىء أوجب كونه فاعلاً ، ورأوا صريح العقل يقضى بأنه إذا صار فاعلاً بعد أن لم يكن فاعلاً ، فلا بد من حدوث شىء [3] ، وأنه يمتنع فى العقل أن يصير ممكناً بعد أن كان ممتنعاً بلا حدوث ، وأنه لا سبب يوجب حصول وقت حدث وقت الحدوث وأنَّ حدوث جنس الوقت ممتنع ، فصاروا يظنون إذا جمعوا بين هؤلاء أنه يلزم الجمع بين النقيضين وهو أن يكون الفاعل قبل الفعل وأنه يمتنع أن يصير فاعلاً بعد أن لم يكن فيكون الفعل معه فيكون الفعل مقارناً غير مقارن بأن كان بعد أن لم يكن حادثاً مسبوقاً بالعَدم ، فامتنع على هذا التقدير أن يكون فعل الفاعل مسبوقاً بالعدم ، ووجب على التقدير الأول أن يكون فعل الفاعل مسبوقاً بالعدم ، ووجدوا عقولهم تقصر بما يوجب هذا الإثبات وما يوجب هذا النفى ، والجمع بين النقيض ممتنع ، فأوقعهم ذلك فى الحيرة والشك .

---

(١) قوله : « بما يفهم ... » إلخ خبر « كان » لا متعلق بقوله : « أخبر » .

(٢) للتعريف بابن سينا انظر جـ ٥ هامش ص ١٠٤ (البلتاجى) .

(٣) أى أوجب كونه فاعلاً على أصولهم .

● وجوب كون كلام الحى وفعله بمشيئته كليهما شيئاً بعد شئ :

ومن أسباب ذلك أنهم لم يعرفوا حقيقة السمع والعقل فلم يعرفوا ما دل عليه الكتاب والسُنَّة ولم يُميِّزوا فى المعقولات بين المشتبهات ، وذلك أنَّ العقل يُفَرِّق بين كون المتكلم متكلماً بشىء بعد شىء دائماً ، وكون الفاعل يفعل شيئاً بعد شىء دائماً ، وبين آحاد الفعل والكلام ، فيقول كل واحد من أفعاله لا بد أن يكون مسبوقاً بالفاعل وأن يكون مسبوقاً بالعدم ، ويمتنع كون الفعل المعيَّن مع الفاعل أزلاً وأبداً ، وأما كون الفاعل لم يزل يفعل فعلاً بعد فعل فهذا من كمال الفاعل ، فإذا كان الفاعل حياً ، وقيل إنَّ الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة أهل الحديث كالبخارى والدارمى وغيرهما ، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء وبما شاء ونحو ذلك ، كما قاله ابن المبارك وأحمد وغيرهما من أئمة أهل الحديث والسُنَّة - كان كونه متكلماً أو فاعلاً من لوازم حياته ، وحياته لازمة له ، فلم يزل متكلماً فعَّالاً مع العلم بأنَّ الحى يتكلم ويفعل بمشيئته وقُدرته ، وأنَّ ذلك يوجب وجود كلام بعد كلام وفعل بعد فعل ، فالفاعل يتقدم على كل فعل من أفعاله وذلك يوجب أنَّ كل ما سواه محدَث مخلوق ، ولا نقول إنه كان فى وقت من الأوقات ولا قُدرة حتى خلق [1] والذى ليس له قُدرة هو عاجز ، ولكن نقول : لم يزل اللّه عالماً قادراً مالكاً ، لا شَبه له ولا كيف .

{ وقال فى موضع آخر [2] : فقلنا قد أعظمتم على اللّه الفرية حتى زعمتم أنه لا يتكلم فشبهتموه بالأصنام التى تُعبد من دون اللّه ، لأنَّ الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان إلى مكان ، فلما ظهرت عليه الحُجَّة قال : إنَّ اللّه قد يتكلم ولكن كلامه مخلوق ، وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم

---

(١) أصل العبارة : « ولا قُدرة له حتى خلق لنفسه قُدرة فقدر » .

(٢) الظاهر أنَّ هذه الجملة مدرجة فى شرح الحديث نقلها صاحب الكواكب أو غيره من الموضع الآخر ، وقد جعلناها بين علامتين هكذا { } .

اللّه بخلقه حين زعمتم أنّ كلامه مخلوق ، ففى مذهبكم قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً ..... [1] ، فتعالى اللّه عن هذه الصفة بل إنه لم يزل متكلماً إذا شاء . ولا نقول إنه كان لا يعلم حتى خلق علماً فعلم ، ولا نقول إنه كان ولا قُدرة له حتى خلق لنفسه قُدرة . ثم ساق كلامه رضى اللّه عنه] .

فليس مع اللّه شىء [2] من مفعولاته قديم معه . لا بل هو خالق كل شىء وكل ما سواه مخلوق له ، وكل مخلوق محدَث كائن بعد أن لم يكن وإن قُدِّرَ أنه لم يزل خالقاً فعالاً . وإذا قيل إنّ الخلق صفته كمال لقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [3] أفلا أمكن أن تكون خالقيته دائمة وكل مخلوق له محدَث مسبوق بالعدم وليس مع اللّه شىء قديم . وهذا أبلغ فى الكمال من أن يكون معطلاً غير قادر على الفعل ثم يصير قادراً والفعل ممكناً له بلا سبب . وأما جعل المفعول المعيَّن مقارناً له أزلاً وأبداً فهذا فى الحقيقة تعطيل لخلقه وفعله ، فإنّ كون الفاعل مقارناً لمفعوله أزلاً وأبداً مخالف لصريح المعقول .

فهؤلاء الفلاسفة الدهرية - وإن ادّعوا أنهم يثبتون دوام الفاعلية - فهم فى الحقيقة معطلون للفاعلية ، وهى الصفة التى هى أظهر صفات الرب تعالى . ولهذا وقع الإخبار بها فى أول ما نزل على الرسول ﷺ ، فإنّ أوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [4] فأطلق الخلق ثم خَصَّ الإنسان ، وأطلق التعليم ثم خَصَّ التعليم بالقلم ، والخلق يتضمن فعله ، والتعليم يتضمن قوله ، فإنه يُعلِّم بتكليمه ، وتكليمه بالإيحاء وبالتكلم من وراء

---

(١) بياض فى الأصل .
(٢) هذا الكلام متصل بما قبل الجملة المدرجة .
(٣) النحل : ١٧
(٤) العلق : ١ - ٥

حجاب وبإرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءَكَ منَ العلم ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ * الشَّمْسُ وَالقَمَرَ بِحُسْبَانٍ ﴾ (٤) .

• بطلان قول الفلاسفة فى الإله لأنه تعطيل للصفات :

وهؤلاء الفلاسفة يتضمن قولهم فى الحقيقة أنه لم يخلق ولم يعلم ، فإنَّ ما يثبتونه من الخلق والتعليم إنما يتضمن التعطيل ، فإنه على قولهم لم يزل الفلك مقارناً له أزلاً وأبداً ، فامتنع حينئذ أن يكون مفعولاً له ، فإنَّ الفاعل لا بد أن يتقدم على فعله ، وعندهم أنه لا يعلم شيئاً من جزئيات العلم ، والتعليم فرع العلم ، فمَن لم يعلم الجزئيات يمتنع أن يُعلِّمها غيره ، وكل موجود فهو جزئى لا كلى ، كذا الكليات إنما وجودها فى الأذهان لا فى الأعيان ، فإذا لم يعلم شيئاً من الجزئيات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، فامتنع أن يُعلِّم غيره شيئاً من العلم بالموجودات المعيَّنة .

ومَن قال منهم : « لا يعلم لا كلياً ولا جزئياً » فقوله أقبح . ومَن قال : « يعلم الكليات الثابتة دون المتغيِّرة » ، فهو عندهم لا يعلم شيئاً من الحوادث ولا يُعلِّمها لأحد من خلقه ، كما يقتضى قولهم أنه لم يخلقها ، فعلى قولهم لا خلق ولا علم ، وهذا حقيقة قول مقدمهم أرسطو ، فإنه لم يثبت أنَّ الرب مبدع للعالَم ولا جعله عِلَّة فاعلة ، بل الذى أثبته أنه عِلَّة غائية يتحرك الفلك لتشبُّه به كتحريك المعشوق للعاشق ، وصرَّح بأنه لا يعلم الأشياء . فعنده لا خلق

(١) النساء : ١١٣
(٢) آل عمران : ٦١
(٣) طه : ١١٤
(٤) الرحمن : ١ - ٥

ولا علم . وأول ما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

• وجوب الاجتماع فى كل أسبوع للعبادة شكراً لله على خلق السموات والأرض :

الوجه الرابع عشر : أنَّ الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له ، وذلك يتضمن معرفته لما أبدعه من مخلوقاته وهى المخلوقات المشهودة الموجودة ، من السموات والأرض وما بينهما ، فأخبر الكتاب الذى لم يأت من عنده كتاب أهدى منه بأنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة فى ستة أيام ثم استوى على العرش . وشرع أهل الإيمان (٢) أن يجتمعوا كل أسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحتفلون بذلك ، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذى خلق الله فيه السموات والأرض . ولما لم يُعرف الأسبوع إلا بخبر الأنبياء فقد جاء فى لغتهم عليهم السلام أسماء أيام الأسبوع فإنَّ النفس يتبع النصوص (٣) فالاسم يُعبِّر عما تصوره ، فلما كان تصور اليوم والشهر والحول معروفاً بالعقل تصورت ذلك الاسم وعبرت عن ذلك ، وأما الأسبوع فلما لم يكن فى مجرد العقل ما يوجب معرفته ، فإنما عُرِف بالسمع ، صارت معرفته عند أهل السمع المتلقين عن الأنبياء دون غيرهم ، وحينئذ فأخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود وابتداء خلقه وأنه خلقه فى ستة أيام ، وأما ما خلقه قبل ذلك شيئاً بعد شىء فهذا بمنزلة ما سيخلقه بعد قيام القيامة ودخول أهل الجنة وأهل النار منازلهما . وهذا مما لا سبيل للعباد إلى معرفته

---

(١) العلق : ١ - ٥ (٢) لعله : لأهل الإيمان .

(٣) كذا فى الأصل وهو غير ظاهر ، وإنما المعنى الذى يدل عليه المقام أنَّ التسمية تتبع التصور فالاسم يعبِّر عما تصوره واضعه .

تفصيلاً . ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم » (رواه البخارى) . فالنبى ﷺ أخبرهم ببدء الخلق إلى دخول أهل الجنة والنار منازلهما .

وقوله : « بدأ الخلق » مثل قوله فى الحديث الآخر : « قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » فإنَّ الخلائق هنا المراد بها الخلائق المعروفة المخلوقة بعد خلق العرش وكونه على الماء . ولهذا كان التقدير للمخلوقات هو التقدير لخلق هذا العالَم ، كما فى حديث القلم : أنَّ الله لما خلقه قال : اكتب ، قال : وماذا أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وكذلك فى الحديث الصحيح : « إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » ، وقوله فى الحديث الآخر الصحيح : « كان الله ولا شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السمٰوات والأرض » يراد به أنه كتب كل ما أراد خلقه من ذلك فإنَّ لفظ « كل شىء » يعم فى كل موضع بحسب ما سيقت له ، كما فى قوله : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، و ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣) ، و ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٤) ، ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) ، و ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٦) ، ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (٧) ، وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته كما فى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٨) ، ﴿ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (٩) ، ﴿ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (١٠) ... وأمثال ذلك .

---

(١) البقرة : ٢٩ (٢) البقرة : ١٠٦ (٣) الرعد : ١٦
(٤) الأحقاف : ٢٥ (٥) النمل : ٢٣ (٦) الأنعام : ٤٤
(٧) الذاريات : ٤٩ (٨) النساء : ١٥٨ (٩) النساء : ٥٨
(١٠) النساء : ٢٣

● كمال اللّه بذاته لذاته وحده عليه أزلاً وأبداً :

قال ابن عباس : « كان ولا يزال » ولم يقيِّد كونه بوقت دون وقت ، ويمتنع أن يُحدث له غيره صفة ، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه ، فهو المستحق لغاية الكمال ، وذاته هى المستوجبة لذلك . فلا يتوقف شيء من كماله ولوازم كماله على غيره ، بل نفسه المقدَّسة ، وهو المحمود على ذلك أزلاً وأبداً ، وهو الذى يحمد نفسه ويُثنى عليها بما يستحقه . وأما غيره فلا يُحصى ثناءً عليه بل هو نفسه كما أثنى على نفسه ، كما قال سيد ولد آدم فى الحديث الصحيح : « اللّهم إنى أعوذُ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذُ بك منك ، لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وإذا قيل : « لم يكن متكلماً ثم تكلم » ، أو قيل : « كان الكلام ممتنعاً ثم صار ممكناً له » ، كان هذا - مع وصفه له بالنقص فى الأزل ، وأنه تجدد له الكمال ، ومع تشبيهه له بالمخلوق الذى ينتقل من النقص إلى الكمال - ممتنعاً من جهة أنَّ الممتنع لا يصير ممكناً بلا سبب ، والعدم المحض لا شيء فيه [1] ، فامتنع أن يكون الممتنع فيه يصير ممكناً بلا سبب حادث . وكذلك إذا قيل : « كلامه كله معنى واحد لازم لذاته ليس له فيه قُدرة ولا مشيئة » ، كان هذا فى الحقيقة تعطيلاً للكلام وجمعاً بين المتناقضين إذ هو إثبات لموجود لا حقيقة له ، بل يمتنع أن يكون موجوداً مع أنه لا مدح فيه ولا كمال ، وكذلك إذا قيل : « كلامه كله قديم العين ، وهو حروف وأصوات قديمة لازمة لذاته ليس فيه قُدرة ولا مشيئة » ، كان هذا مع ما يظهر من تناقضه وفساده فى المعقول لا كمال فيه إذ لا يتكلم بمشيئته ولا قُدرته ولا إذا شاء .

أما قول مَن يقول : « ليس كلامه إلا ما يخلقه فى غيره » فهذا تعطيل للكلام من كل وجه ، وحقيقته أنه لا يتكلم كما قال ذلك قدماء الجهمية ، وهو سلب للصفات إذ فيه من التناقض والفساد حيث أثبتوا الكلام المعروف ونفوا

---

(١) كذا فى الأصل والمعنى المراد : أنه ليس فيه شيء من معنى السببية .

لوازمه ما يظهر به أنه من أفسد أقوال العالَمين ، بأنهم أثبتوا أنه يأمر وينهى ويخبر ويبشر وينذر وينادى من غير أن يقوم به شىء من ذلك ، كما قالوا : « إنه يريد ويحب ويبغض ويغضب من غير أن يقوم به شىء من ذلك » ، وفى هذا من مخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

● إبطال قول الفلاسفة بقِدَم العالَم :

وأما القائلون بقِدم هذا العالَم فهم أبعد عن المعقول والمنقول من جميع الطوائف ولهذا أنكروا الكلام القائم بذاته والذى يخلقه فى غيره ، ولم يكن كلامه عندهم إلا ما يحدث فى النفوس من المعقولات والمتخيلات ، وهذا معنى تكليمه لموسى عليه السلام عندهم ، فعاد التكليم إلى مجرد علم المكلِّم . ثم إذا قالوا مع ذلك : إنه لا يعلم الجزئيات ، فلا علم ولا إعلام ، وهذا غاية التعطيل والنقص ، وهم ليس لهم دليل قَط على قِدم شىء من العالَم ، بل حججهم إنما تدل على قِدم نوع الفعل ، وأنه لم يزل الفاعل فاعلاً ، أو لم يزل لفعله مدة ، أو أنه لم يزل للمادة مادة ، وليس فى شىء من أدلتهم ما يدل على قِدم الفَلك ولا قِدم شىء من حركاته ولا قِدم الزمان الذى هو مقدار حركة الفَلك .

● تقدير الأيام التى خلق اللّه فيها السمٰوات والأرض :

والرسل أخبرت بخلق الأفلاك [1] وخلق الزمان الذى هو مقدار حركتها ، مع إخبارها بأنها خُلِقَتْ من مادة قبل ذلك ، وفى زمان قبل هذا الزمان ، فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ، وسواء قيل : إنَّ تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدَّرة بطلوع الشمس وغروبها ، أو قيل : إنها أكبر منها كما قال

---

(١) الذى فى الأصل : مدار الكوكب ومجراه فى منازله ، وفى اصطلاح هؤلاء الفلاسفة الذين يرد الشيخ عليهم : أنَّ الفَلك جسم صلب شفاف كروى وأنَّ الأفلاك تسعة . سبعة منها للدرارى - السبعة المعروفة على اصطلاحهم - والثامن لجميع النجوم الثوابت ، والتاسع خال من الكواكب والنجوم ويسمونه الأطلس . وقد نقض علم الهيئة الجديد هذا الاصطلاح وأثبت بطلانه . وكلام الشيخ ليس نصاً فى إثباته وإنما يقول إن الفَلك بمعناه الأعم وكيفما كان فهو مخلوق .

بعضهم : إنَّ كل يوم قدره ألف سنة ، فلا ريب أن تلك الأيام التى خُلِقَتْ فيها السموات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك . وتلك الأيام مقدَّرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض [١] .

وقد أخبر سبحانه أنه : ﴿ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [٢] فخُلِقَتْ من الدخان . وقد جاءت الآثار عن السَلَف أنها خُلِقَتْ من بخار الماء ، وهو الماء الذى كان العرش عليه ، المذكور فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ [٣] فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض فى مدة ومن مادة ولم يذكر القرآن خلق شىء من لا شىء ، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً كما قال : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [٤] مع إخباره أنه خلقه من نطفة .

● معنى قوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ :

وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ [٥] فيها قولان : فالأكثرون على أنَّ المراد : أم خُلِقوا من غير خالق بل من العدم المحض ؟ كما قال تعالى : ﴿ وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [٦] ، كما قال تعالى : ﴿ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [٨] . وقيل : أم خُلِقُوا من

---

(١) اليوم فى اللُّغة : الوقت الذى يحده ما يقع فيه كأيام العرب فى حروبها وغيرها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ (إبراهيم : ٥) ، ومنه يوم الحساب للزمن الذى يقع فيه . فأيام خلق السموات والأرض هى الأزمنة التى خلق الله كل طور أو مقدار منها فى زمن كخلقه لمادة الأرض فى يومين وتقدير أقواتها النباتية والحيوانية فى يومين تتمة أربعة أيام . كما فى سورة فصلت . ولا يعلم تقدير كل يوم منها بأيامنا إلا خالقها عَزَّ وجَلَّ .

(٢) فصلت : ١١ (٣) هود : ٧ (٤) مريم : ٩ (٥) الطور : ٣٥ (٦) الجاثية : ١٣ (٧) النساء : ١٧١ (٨) النحل : ٥٣

غير مادة ، وهذا ضعيف لقوله بعد ذلك : ﴿ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (١) فدل ذلك على أنَّ التقسيم : أم خُلِقُوا من غير خالق أم هم الخالقون ؟ ولو كان المراد من غير مادة لقال : أم خُلِقُوا من غير شيء أم من ماء مهين ؟ فدل على أنَّ المراد : أنا خالقهم لا مادتهم ، ولأنَّ كونهم خُلِقُوا من غير مادة ليس فيه تعطيل وجود الخالق ، فلو ظنوا ذلك لم يقدح فى إيمانهم بالخالق بل دل على جهلهم ، ولأنهم لم يظنوا ذلك ولا يوسوس الشيطان لابن آدم بذلك ، بل كلهم يعرفون أنهم خُلِقُوا من آبائهم وأمهاتهم ، ولأن اعترافهم بذلك لا يوجب إيمانهم ولا يمنع كفرهم . والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يُخْلَقوا من غير شيء ، فإذا أقروا بأنَّ خالقاً خلقهم نفعهم ذلك ، وأما إذا أقروا بأنهم خُلِقُوا من مادة لم يُغن ذلك عنهم من الله شيئاً .

الوجه الخامس عشر : أنَّ الإقرار بأنَّ الله لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلم بما يشاء هو وصف الكمال الذى يليق به وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه ، فإنَّ كونه لم يكن قادراً ثم صار قادراً على الكلام أو الفعل مع أنه وصف له فإنه يقتضى أنه كان ناقصاً عن صفة القُدرة التى هى من لوازم ذاته والتى هى من أظهر صفات الكمال ، فهو ممتنع فى العقل بالبرهان اليقينى ، فإنه إذا لم يكن قادراً ثم صار قادراً فلا بد من أمر جعله قادراً بعد أن لم يكن ، فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض امتنع أن يصير قادراً بعد أن لم يكن ، وكذلك يمتنع أن يصير عالماً بعد أن لم يكن قبل هذا ، بخلاف الإنسان فإنه كان غير عالِم ولا قادر ثم جعله غيره عالماً قادراً ، وكذلك إذا قالوا : « كان غير متكلم ثم صار متكلماً » .

---

(١) الطور : ٣٥

• عبارة الإمام أحمد فى كلام اللّه وتكلمه بمشيئته مع التنزيه :

وهذا مما أورده الإمام أحمد على الجهمية إذ جعلوه كان غير متكلم ثم صار متكلماً .

قال : كالإنسان ، قال : فقد جمعتم بين تشبيه وكفر . وقد حكيتُ ألفاظه فى غير هذا الموضع [1] .

وإذا قال القائل : « كان فى الأزل قادراً على أن يخلق فيما لا يزال » ، كان هذا كلاماً متناقضاً لأنه فى الأزل عندهم لم يكن يمكنه أن يفعل ، ومَن لم يمكنه الفعل فى الأزل امتنع أن يكون قادراً فى الأزل ، فإنّ الجمع بين كونه قادراً وبين كون المقدور ممتنعاً جمع بين الضدين ، فإنه فى حال امتناع الفعل لم يكن قادراً .

وأيضاً .. يكون الفعل ينتقل من كونه ممتنعاً إلى كونه ممكناً بغير سبب موجب يحدد ذلك ممتنع .

وأيضاً .. فما من حال يُقدِّرها العقل إلا والفعل فيها ممكن وهو قادر . وإذا قدَّر قبل ذلك شيئاً شاءه اللّه فالأمر كذلك ، فلم يزل قادراً والفعل ممكن وليس

---

(١) قال الإمام أحمد فى كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » الذى نقله الخلاّل واعتمد عليه القاضى أبو يعلى وغيره : فلما ظهرت عليه الحُجَّة قال : إنّ اللّه قد يتكلم ولكن كلامه مخلوق ، قلنا : وكذلك بنو آدم كلامهم فقد شبهتم اللّه بخلقه حتى زعمتم أنّ كلامه مخلوق ، ففى مذهبكم فى وقت من الأوقات : لا يتكلم حتى خلق التكلم وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً . فقد جمعتم بين كفر وبين تشبيهه تعالى اللّه عن هذه الصفة ، بل نقول : إنّ اللّه لم يزل متكلماً أزلاً ولا نقول : إنه كان لا يتكلم حتى خلق كلاماً فتكلم ، ولا نقول : إنه كان لا يعلم حتى خلق علماً فعلم ، ولا نقول : إنه كان ولا قُدرة حتى خلق لنفسه قُدرة . ولا نقول : قد كان فى وقت من الأوقات ولا علم له حتى خلق علماً فعلم ، والذى لا يعلم هو جاهل ، ولا نقول : إنه قد كان فى وقت من الأوقات ولا قُدرة له حتى خلق قُدرة ، والذى ليس له قُدرة عاجز . ولكن نقول : لم يزل اللّه عالماً قادراً متكلماً بلا متى ولا كيف .

لقُدرته وتمكينه من الفعل أول ، فلم يزل قادراً يمكنه أن يفعل فلم يكن الفعل ممتنعاً عليه قط .

• إثبات كونه تعالى قادراً فى الأزل ، ومعنى كلمة الأزل :

وأيضاً .. فإنهم يزعمون أنه يمتنع فى الأزل ، والأزل ليس شيئاً محدوداً يقف عنده العقل ، بل ما من غاية ينتهى إليها تقدير الفعل إلا والأزل قبل ذلك بلا غاية محدودة ، حتى لو فُرِضَ وجود مدائن أضعاف مدائن الأرض فى كل مدينة من الخردل ما يملؤها وقُدِّرَ أنه كلما مضت ألف ألف سنة فنيت خردلة - فنى الخردل كله والأزل لم ينته ، ولو قُدِّر أضعاف ذلك أضعافاً لا ينتهى . فما من وقت يُقَدَّر إلا والأزل قبل ذلك . وما من وقت صدر فيه الفعل إلا وقد كان قبل ذلك ممكناً . وإذا كان ممكناً فما الموجب لتخصيص حال الفعل بالخلق دون ما قبل ذلك فيما لا يتناهى ؟

وأيضاً .. فالأزل معناه عدم الأوّلية ، ليس الأزل شيئاً محدوداً ، فقولنا : « لم يزل قادراً » بمنزلة قولنا : « هو قادر دائماً » ، وكونه قادراً وصف دائم لا ابتداء له ، فكذلك إذا قيل : « لم يزل متكلماً إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء » ، يقتضى دوام كونه متكلماً وفاعلاً بمشيئته وقُدرته ، وإذا ظن الظان أنَّ هذا يقتضى قِدم شىء معه كان من فساد تصوره ، فإنه إذا كان خالق كل شئ فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم ، فليس معه شىء قديم بقِدمه . وإذا قيل : « لم يزل يخلق » كان معناه لم يزل يخلق مخلوقاً بعد مخلوق ، كما لا يزال فى الأبد يخلق مخلوقاً بعد مخلوق ، ننفى ما ننفيه من الحوادث والحركات شيئاً بعد شىء . وليس فى ذلك إلا وصفه بدوام الفعل لا بأنَّ معه مفعولاً من المفعولات بعينه .

وإن قُدِّرَ أن نوعها لم يزل معه ، فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل ، بل هى من كماله ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) والخلق لا يزالون معه ، وليس فى كونهم لا يزالون معه فى المستقبل ما ينافى كماله ، وبين الأزل فى المستقبل مع أنه فى الماضى حدث بعد أن لم يكن إذ كان كل مخلوق فله ابتداء ، ولا نجزم أن يكون له انتهاء . وهذا فرق فى أعيان المخلوقات ، وهو فرق صحيح لكن يشتبه على كثير من الناس النوع بالعين ، كما اشتبه ذلك على كثير من الناس فى الكلام فلم يُفَرِّقوا بين كون كلامه قديماً - بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء - وبين كون الكلام المعيَّن قديماً ، وكذلك لم يُفَرِّقوا بين كون الفعل المعين .....(٢) المعيَّن قديماً كالفَلَك محدَث مخلوق مسبوق بالعدم ، وكذلك كل ما سواه ، وهذا الذى دل عليه الكتاب والسُّنَّة والآثار وهو الذى تدل عليه المعقولات الصريحة الخالصة من الشُبه كما قد بسطنا الكلام عليها فى غير هذا الموضع ، وبيَّنا مطابقة العقل الصريح للنقل الصحيح .

● غلط الفلاسفة بعدم التفريق بين القِدَم بالنوع والقِدَم بالعين :

وإنَّ من غلط أهل الفلسفة والكلام - أو غيرهم - فإنما هو لغلط فيهما أو فى أحدهما ، وإلا فالقول الصدق المعلوم بعقل أو سمع يصدِّق بعضه بعضاً لا يكذِّب بعضه بعضاً قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣) بعد قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ (٤) وإنما مدح مَن جاء بالصدق وصَدَّق بالحق الذى جاء . وهذه حال مَن لم يقبل إلا الصدق ولم يرد ما يجيئه به غيره من الصدق ، بل قبله ولم يعارض بينهما ولم يدفع أحدهما بالآخر ، وحال مَن كذب على الله

---

(١) النحل : ١٧ (٢) بياض فى الأصل ولعله : « قديماً والشىء المعيَّن » .

(٣) الزمر : ٣٣ (٤) العنكبوت : ٦٨

ونسب إليه بالسمع أو العقل ما لا يصح نسبته إليه أو كذّب بالحق لما جاءه ، فكذّب مَن جاءه بحق معلوم من سمع أو عقل ، وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) فأخبر أنه لو حصل لهم سمع أو عقل ما دخلوا النار ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (٣) أى أنَّ القرآن حق ، فأخبر أنه سيُرِى عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين أنَّ الآيات المتلوة المسموعة حق .

• غلط الفلاسفة والمتكلمين فى نظريات الحركة والحدوث :

ومما يُعرف به منشأ غلط هاتين الطائفتين : غلطهم فى الحركة والحدوث ومسمى ذلك ، فطائفة كأرسطو وأتباعه قالت : لا يعقل أن يكون جنس الحركة والزمان والحوادث حادثاً ، وأن يكون مبدأ كل حركة وحادث صار فاعلاً لذلك بعد أن لم يكن ، وأن يكون الزمان حادثاً بعد أن لم يكن حادثاً ، مع أنَّ قبل وبعد لا يكون إلا فى زمان ، وهذه القضايا كلها إنما تصدق كلية لا تصدق معيَّنة ، ثم ظنوا أنَّ الحركة المعينة وهى حركة الفَلك هى القديمة الأزلية وزمانها قديم ، فضلُّوا ضلالاً مبيناً مخالفاً لصحيح المنقول المتواتر عن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم مع مخالفته لصريح المعقول الذى عليه جمهور العقلاء من الأوَّلين والآخرين .

وطائفة ظنوا أنه لا يمكن أن يكون جنس الحركة والحوادث والفعل إلا بعد أن لم يكن شىء من ذلك ، أو أنه يجب أن يكون فاعل الجميع لم يزل معطلاً ثم

---

(١) الملك : ١٠ (٢) الحج : ٤٦ (٣) فصلت : ٥٣

حدثت الحوادث بلا سبب أصلاً وانتقل الفعل من الامتناع إلى الإمكان بلا سبب ، وصاد قادراً بعد أن لم يكن بلا سبب ، وكان الشيء بعد ما لم يكن فى غير زمان ، وأمثال ذلك مما يخالف صريح العقل ، وهم يظنون مع ذلك أنَّ هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وليس هذا القول منقولاً عن موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات اللّه عليهم وسلامه ، ولا عن أحد من أصحابهم ، إنما هو مما أحدثه بعض أهل البدع وانتشر عند الجُهَّال بحقيقة أقوال الرسل وأصحابهم ، فظنوا أنَّ هذا قول الرسل صلى اللّه عليهم وسلم ، وصار نسبة هذا القول إلى الرسل وأتباعهم يوجب القدح فيهم إما بعدم المعرفة بالحق فى هذه المطالب العالية ، وإما بعدم بيان الحق ، وكل منهما يوجب عند هؤلاء أن يعزلوا الكتاب والسُنَّة وآثار السَلَف عن الاهتداء .

● سبب ضلال المبتدعين جهلهم بهدى الرسول وأصحابه والتابعين :

وإنما ضَلُّوا لعدم علمهم بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضى اللّه عنهم والتابعون لهم بإحسان . فإنَّ اللّه تعالى أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ، وكفى باللّه شهيداً .

« انتهى »

* * *